إشكالية تطبيق المناهج الغربية على النصوص العربية

أ.نورة عميري

جامعة الحاج لخضر- باتنة 1

الملخص:

لعل الانفتاح على الثقافة الغربية، والانبهار بمحمولاتها الفكرية، وعدم الوعي بالمناهج النقدية الغربية وخلفياتها الابستمولوجية، قد شكل أزمة في تطبيق هذه المناهج على النص الأدبي العربي .

وقد ساهمت حركة تطور الأدب الغربي في خلق هذه المناهج واختلافها، كما أدت هذه الأسباب وغيرها إلى تطويع النص العربي لملائمة هذه المناهج البعيدة عن بيئته ونشأته، وصعوبة فهم هذه المناهج الغربية الحديثة أدى إلى تعمية المتلقي وإبعاده عن سبر أغوار النص .

ونسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى تحديد مختلف الإشكاليات في ظل تطبيق المناهج النقدية الغربية الحديثة للنص الأدبي العربي، ومحاولة الوصول إلى مناهج نقدية عربية تضمن للنص الأدبي أصالته.

الكلمات المفتاحية: الإشكاليات، التطبيق، المناهج الغربية، الخلفيات الابستولوجية،النصوص العربية.

Summary:

Openness to Western culture, fascination with its intellectual implications, and a lack of awareness of Western critical approaches and its epistemological backgrounds may have posed a crisis in the application of these approaches to the Arab literary text.

The movement of the development of Western literature contributed to the creation of these curricula and their differences.These and other reasons led to the adaptation of the Arabic text to suit these curricula far from its environment and origin, and the difficulty of understanding these modern Western curricula led to the blindness of the recipient and keep him away from exploring the text.

We seek through this paper to identify the various problems in the light of the application of modern Western critical approaches to the Arab literary text, and try to access the Arab critical approaches to ensure the literary text authenticity.

Key words: Problems, Application ,Western Curriculum, Epistemological background, Arabic Texts.

توطئة:

إن إشكالية المناهج النقدية الغربية، وكيفية تطبيقها على النصوص العربية أصبحت من اهتمامات الدراسات النقدية المعاصرة، التي تسعى جاهدة للبحث عن مشروعية هذه المناهج، ومدى ملائمتها لنصوصنا العربية.

والعلاقة بين المناهج النقدية الغربية، والنقد العربي ترجع إلى « الفترات التي عرفت حركة الترجمة من أجل التعريف بالثقافة الأجنبية، حيث اتجه النقد في هذه الفترة من تاريخه نحو البحث عن مناهج جديدة دفعته إلى إيجاد منطلقات فكرية حداثية توجه خطاباته »[1].

غير أن طبيعة النص العربي وخصوصيته، شكلت جانبا من الإبهام وعدم التوافق أثناء مقاربته في ظل المناهج الغربية، والحقيقة أن « تعامل النقد الأدبي المعاصر، عند الغرب مع الظاهرة الأدبية، كان مطبوعا بجهد إمبريقي مبالغ فيه أحيانا، في اختيار فروض دراساته، في أفق موضوعية مثالية. قد يكون ذلك بسبب طبيعة وخصوصية النص الأدبي عندهم. ربما... لكن بالنسبة لنا نحن العرب، فإن الظاهرة الأدبية عندنا، قد وسمت منذ الأصل بخصوصيات واضحة، ذلك إن تميزها عن نظيرتها الغربية، راجع بالأساس إلى بيئة منشئها التي ليست إطلاقا هي نفس بيئة منشئ الأولى»[2]، وهذا التأثر بالمناهج الغربية وإدراجها في أحضان النص الأدبي العربي، نتج عن الانفتاح الثقافي والأخذ من الأصول الغربية دون الغوص في أعماقها ومعرفة جذورها الممتدة إلى خلفيات أخرى.

1- الخلفيات الابستمولوجية للمناهج النقدية الغربية:

نجد أن مختلف المناهج الغربية قد نشأت في ظل تيارات فلسفية؛ تتبنى بذلك أصولا مرتبطة بالظروف الاجتماعية لأوروبا، حيث « سادت بعد مجيء النهضة الصناعية، أفكار فلسفية جديدة ونظريات علمية،كلها تحاول التنظير لنمط مجتمع جديد تسوده القطيعة بينه وبين فلسفات القرون الوسطى، تلك العصور التي كانت الكنيسة مسيطرة فيه على الفكر والثقافة، ومن ثم انتشرت بعد الثورة الصناعية فلسفة تناهض الفكر الكنسي، وبرزت بذلك فكرة موت الإله، والاعتناء بالإنسان، بمعنى إبعاد كل فكرة دينية وعزلها عن كل معرفة إنسانية، وليس الدين هو المرجع الفكري لكل معرفة كما كان سابقا، وإنما الإنسان هو صاحب القدرة وحده على توجيه نفسه، وبناء على هذا طالب أصحاب الفكر الجديد بتحرير الإنسان من المغيبات، وذلك كي يشغل قدراته الخلاقة، لا يعبأ بالقيم الدينية ما دامت الغاية هي خدمة ذاته الإنسانية فحسب »[3].

ومن هذا المنطلق، نلاحظ أن المناهج النقدية المعاصرة ما هي إلا « ثمرة ثقافة غربية (أوروبية وأمريكية) وحصيلة حضارتها المادية، وأنها انتقلت إلى العالم العربي مثلها مثل باقي معالم الحضارة عن طريق موجة التأثير الغربية التي هزت العالم العربي، فلم يعد بوسعه إلا التبني أو التقليد أو إعادة التصنيع- إن صح القول_ بحسب ما يناسب الحضارة العربية »[4].

وكان للجانب الفلسفي من الثقافة الغربية الأثر البارز في تشكيل المناهج النقدية، فكل منهج يخضع في محتواه اللامرئي إلى خلفية معرفية، ومن أمثلة ذلك نجد المنهج التفكيكي الذي يضرب بجذوره في أعماق الفلسفة الغربية، حيث يرتكز على « ظلال الفلسفة العبثية والوجودية مرورا بالفلسفة العدمية وفلسفة الشك والفلسفة الظاهراتية، وعليه، فإن تبني أو استقطاب هذا المنهج، لا يطرح إشكالية مدى أقلمة أدواته الإجرائية فحسب، بل يطرح مسألة المقولات والمفاهيم الغربية عن الذائقة العربية، مما يتطلب أخذ الحيطة والحذر والمعرفة الشاملة بجذوره الابستمولوجية والفلسفية »[5].

والمنهج البنيوي على غرار المناهج الأخرى يخضع بدوره إلى أصول فلسفية بحتة؛ حيث انتقلت فكرة « موت الإله إلى الأدب والنقد، فأعلن الأدباء موت الشخصية، وأعلن النقاد معهم موت المؤلف (...)، وهذه الفكرة تنافي القيم التي يحملها الأدب العربي، ويتصادم مع الظروف التي نشأ فيها »[6]، ويبدو أن المناهج النقدية الغربية تقوم على مرجعيات فكرية تتناقض مع أصولنا الفكرية والدينية، وهذه المرجعيات الفكرية لا تنطبق على المنهج البنيوي فقط، ولكن تتعدى ذلك إلى أغلب المناهج الأخرى .

وتعود الإرهاصات الأولى لعلم السيمياء إلى الحضارة الإغريقية القديمة، حيث تحمل السيمياء إشارات فلسفية منطلقها الفكر اليوناني، ولذلك « يبقى السؤال سمتها الرئيسية، والشك عنوانها الدائم، وهي لا تفتأ تطرح الأسئلة دون الاقتناع بأي جواب، وبما أن السؤال هو أصل المعرفة، فإن الفلسفة هي الخلفية التي يستقي منها أي علم مقوماته وقيّمه بل حتى مشروعيته، ولهذا فإن التأمل في العلامة وحيثياتها منشؤه فلسفيا »[7] .

وتتمثل إشكالية المنهج السيميائي أثناء التطبيق في عدم وجود آليات متفق عليها في تحليل النص الأدبي، حيث أن تطبيق المناهج الغربية بصفة عامة على النص العربي أمر شائك ويكتنفه اللبس والغموض، كما تتعلق الإشكالية في الاختلاف الكبير بين « المحللين السيميائيين فيما بينهم، ذلك أن استخدامهم للأدوات الإجرائية متباين عن الآخر، ناهيك عن المستوى الثقافي والتجارب النقدية لدى كل واحد تزيد من المشكلة، لتبقى مشكلة التطبيق قائمة خاصة في النقد العربي »[8] .

ويتضح أن المناهج النقدية المعاصرة ما هي إلا نتيجة التغيرات الاجتماعية في أوروبا، وهي بذلك « بعيدة بأنساقها وسياقاتها عن المناخ الأدبي الذي ظهر فيه النص الأدبي واللغوي في تراثنا القديم، أو في أدبنا الحديث (...) ، ولذلك ينبغي التعامل بحذر ووعي علمي، مع هذه المناهج بما يوافق طبيعة أدبنا، لاسيما أن معظم تلك المناهج ظهرت تناقضاتها على أيدي زعمائها، ولذا نجدهم يتراجعون عن بعض أفكارها، ويتنازلون عنها، فيعلنون انتقالهم إلى مناهج أخرى أو يحاولون استدراك ما فاتهم»[9].

والاعتقاد الخاطئ بعزل المنهج عن المحمولات الفكرية، أدى إلى « التهافت على المناهج الغربية، في غياب الوعي بحجم المخاطر المترتبة على مثل هذا الانتماء في أحضان آليات إجرائية غربية المنبت وتطبيقها بشكل آلي على نصوص عربية لها خصوصيتها الحضارية، يؤدي إلى تشويه هذه النصوص حينًا، وطمس دلالتها واختزالها أحايين أخرى » [10].

إلى جانب ذلك فإن « المسألة تتعدى المنهج، والمرجعيات والخلفيات النقدية التي تقف وراء تطور النقد العربي المعاصر، لكون المصادرة النقدية والمعارضة والمناورة الفكرية على مستوى المدارس النقدية بين الشرق والغرب كانت تمثل هدفًا مباشرًا في خلخلة النص الأدبي العربي المتعلق بالموروث التراثي العربي وسط المناهج النقدية النصانية المعاصرة »[11]، وعدم الوعي بالخلفيات الابستمولوجية للمناهج الغربية، ضاعف من حجم الأزمة حيث توسعت دائرة استقطاب هذه المناهج وتطبيقها على النص الأدبي العربي.

2- أزمة التبعية للمناهج النقدية الغربية:

يهتم المنهج النقدي بدراسة الظاهرة الأدبية ومحاولة تحليلها، من أجل استكناه خباياها ومقاصدها الفنية والجمالية، ولأن النقد قديما، كان يعتمد على الذوقية والذاتية في تحليل النص الأدبي، فهو« يبحث في المضامين انطلاقا من جوانب خارجة عن النص، فقد أصبح الآن إجراءات موضوعية تسعى إلى نقد النص من داخله، وهذا ما لمسه النقاد العرب في مناهج الغرب بعد الاطلاع على انجازاتهم في مقاربة النصوص، ولعل هذا الانفتاح غير المشروط هو ما جعل الناقد العربي يلجأ إلى استراد المنهج ويدعو إليه بشكل حماسي »[12].

واللجوء إلى الثقافة الغربية ومحمولاتها الفكرية « لم يلتفت إليها من انبهروا بالحداثة الغربية، فقد نقلوا نقلا كاملاً عن الحداثة الغربية وكان تمهيدًا للتبعية الثقافية وترسيخًا لها والارتماء في أحضان تيه لم يكن من صنعنا»[13].

والنقد العربي المعاصر لجأ إلى هذه المناهج الغربية معتقدا أنها « لا تعدو أن تكون مجرد أدوات إجرائية لمقاربة النصوص الأدبية ليس إلا، متناسيا أن هذه المناهج تحمل في ثناياها مرجعيات معرفية وفلسفية تتماشى والخصوصية الحضارية الغربية التي انبثقت منها

والبعيدة كل البعد عن الخصوصية أو الذائقة العربية فبينهما برزخ لا يبغيان، فالقضية ليست مسألة تبني أو استقطاب مثل هكذا مناهج نقدية بل الوعي بجذورها الابستمولوجية التي تطرح أزمة الآخر لا أزمة ال" نحن" تطرح سؤال الغرب لا سؤال العرب »[14].

في ظل هذه المقاربات النقدية البعيدة المنشأ عن النص العربي ومضامينه الفكرية والجمالية، حدث تنافر بين النص الأدبي والمتلقي، الذي فقد القدرة على استيعاب مثل هذه المقاربات المبنية على أصول غربية، ومن ثمة فإن « أبرز مظاهر الأزمة التي يتخبط فيها الخطاب النقدي العربي المعاصر، تعود، فيما تعود، إليه إلى الانفتاح اللامشروط الذي شهدته الدوائر الفكرية العربية على غيرها من الغرب، دون محاولة لتصفية هذا الوافد من شوائب الانتماء إلى تربته الأصلية، ثم تأصيله في تربية الثقافة العربية»[15]، وهذه المناهج قد باءت بالفشل في كثير من الحالات عند محاولتها لاستنطاق مضامين النص الأدبي العربي، الذي يتميز بالتنوع في مفرداته ومعانيه وليس من السهل التعامل معه على اعتبار أنه كتلة جامدة نسيرها كما نشاء، فالنص انتماء فكري قبل أن يكون صياغات لغوية وفنية.

وسبب اللجوء إلى هذه المناهج ناجم عن « غياب الوعي بالأصول انطلاقا من النهل من مكتسبات الآخر، والذي لم يكن كمعادلة موازية موازنة، فالأخذ كان عن طريق استلهام النتائج المتاحة للنظريات الغربية، وليس استلهاما لتداعيات هذه النتائج الناجمة عن مشروع غربي قائم على خصوصية البيئة والظرف الراهن الذي أنتجت فيه، إلا أن هذا لا يعني التهجم على النقاد العرب الذين تحمسوا لهذه النتائج كونها تبحث عن علمنة الأدب؛ انطلاقا من استنطاق النص وليس البحث خارجه »[16].

والسبب الرئيس في خلق هذه الأزمة في مجال النقد العربي يعود إلى « الانفتاح اللامشروط الذي عرفته الساحة الثقافية العربية من السبعينات إلى الآن، على التيارات والمذاهب الفكرية المختلفة، وابتلاعها دون هضم ولا استيعاب أحيانا، مع ما صاحبها من تهافت على أحدث المناهج التي تعرفها الساحة الثقافية الغربية، دون استحضار ما يتطلبه ذلك من نقد وحرص شديدين، مراعاة لاختلاف ظروفها التاريخية والمعرفية، ذلك أنه إذا كانت الحتمية التاريخية تفرض علينا الانفتاح على جميع المعارف، إن نحن أردنا مسايرة الركب الحضاري في وتيرة التقدم المتسارعة، فإنه يجب علينا الحرص على أن لا تقتلع رياح الانفتاح جذورنا من تربتها، فتفقدنا خصوصيتنا، وتحولنا لنسخة مشوهة للآخر »[17].

ويرجع السبب في ذلك إلى انبهار الباحثين في الدراسات النقدية بالمناهج الغربية « فاعتنقوها وتشبثوا بها وهللوا لها في أبحاثهم، ولم يتبينوا نقائصها إلا بعد زمن من الإعجاب

والتبعية. ولو أنهم خصوا بحوث السلف ببعض الجهد المهدور لأملنا أن يصلوا إلى نتائج تظهر»[18].

وهذا التأثر بالمناهج النقدية الغربية أدى إلى مشكلة ضبط المصطلح النقدي، ومن ثمة أزمة تحديد « نظرية نقدية عربية أصلية يتفق عليها جميع النقاد المغاربة والمشارقة، فحالة الضعف التي نعيشها على عدد من الصُّعُد تؤكد تبعية التجدد والابتكار في الثقافة عامة والأدب والنقد خاصة (والمثقف الناقد القارئ المدقق المتوازن الموهوب في حساسيته وفطرته وعلمه هو من صنع الفكر، وما نراه على ساحة الأدب والنقد فهناك أشكال غير قليلة انتهت إلى الاستلاب الإرادي والثقافي، وإلى بلبلة فكرية وسياسية وشللية ودينية وقومية فكلما اخترع الغرب منهجا ما طفقْنا ننتصر لهُ، وشرعنا نعيب على نقادنا القدامى تقصيرًا على ما وصلت إليه حركة النقد الحديثة، ذلك لأن مقاييس الغرب في دراسة الأدب تختلف عن طبيعة الأدب العربي اختلافا عظيما »[19].

إن الجمع بين المنهج النقدي الغربي والنص العربي« يضع على طاولة التشريح تحديا دقيقا يتمثل في صرامة المنهج، وممانعة جسد النص وروحه، ومدى كفاءة الناقد في إحراز نجاح مهمة تبدو ثقافية أكثر مما هي نقدية إذن، يتوقف رهان النقد الأدبي على دبلوماسية ذكية بين النص العربي والمنهج وبين الخلفيتين الثقافيتين لكل منهما»[20].

لقد حاول النقد العربي تطبيق مختلف المناهج النقدية التي استلبها من الغرب محاولا في ذلك فك شفرات النص الأدبي العربي، ونتج عن هذا التمسك بالمناهج الغربية في « خلق أزمة للنقد العربي كانت في أساسها عدم الوعي بماهية المنهج، وليس إهمال خلفياته الابستمولوجية فقط، ذلك أنهم كانوا يرون المنهج كأدوات إجرائية أو وسائل تتاح للناقد من أجل مقاربة النص الأدبي، ولكونه أدوات إجرائية فهو عندهم بمثابة القالب الذي يؤتى به لوضع النص بداخله بغرض تجريبه، ولذلك كانت الدعوة من المظاهر السلبية للانفتاح غير المشروط على الآخر »[21].

ويمكن القول أن إخضاع النص الأدبي العربي لهذه المناهج الغربية أدى إلى نفور القارئ منها، متجنبا الوقوع في تشويه النص الأدبي وتغريبه، وتظهر هذه الإشكالية خاصة أثناء التطبيق.

3- إشكالية تطبيق المناهج النقدية الغربية على النص العربي:

إن إشكالية تطبيق المناهج الغربية على النصوص العربية قضية شائكة، حيث « انعكست كل آثار تلقي النقد العربي المعاصر غير السليم، للمناهج النقدية الغربية، على الممارسات التي عمد فيها أصحابها تطبيق آليات هذه المناهج على النص العربي، دون وعي بالهوة الفاصلة منهجيا وفكريا ولغويا وحضاريا »[22].

فلا يمكن فصل الآليات الإجرائية عن أصولها المعرفية؛ حيث نلاحظ « مدى وفاء المناهج الغربية لأصول نشأتها، و تحيّزها للأنساق الحضارية التي أسهمت في تشكيلها وتأصيلها(...)، انطلاقا من هذه الشرفة، هو أنّ وراء هذه الحقيقة يكمن سر التعثر الذي يعانيه الخطاب النقدي العربي المعاصر- وهو يحاول أن يطبق المناهج الغربية (البنيوية، الأسلوبية، السيميولوجية، التفكيكية)- الأمر الذي جعل تلك المحاولات لا تتعدى التنظير إلى الإنجاز،إلا في نطاق محدود، لأنها لا تنطلق من النص قصد استكناه دلالته، بل تسعى لإيجاد مبررات لأدوات المنهج المتوسل به، فيحدث التنافر بين النص والمنهج، فتغيب الدلالة، وتطمس معالم النص، ويسود الغموض »[23].

وفي كثير من الأحيان نلمس عدم التفاعل بين النص العربي والمنهج الغربي في المجال التطبيقي، ومن ثم تكون « نتائجه غير صحيحة. وعليه هنا أيضا يكون المنهج النقدي صالحا فقط على المستوى النظري، لكن القيمة الحقيقية للمنهج ليست في الكفاية النظرية، إذ لا يعتد بها ولا تتخذ مقياسا لمعرفة التفاعل بين النص والمنهج، وإنما الذي يعول عليه هو الكفاية الإجرائية، لكن هذه الأخيرة تشكل حجر العثرة التي تقف أمام الناقد باستمرار »[24].

وينتج عن ذلك إخضاع النص العربي لآليات غريبة، مما يزيد في تشويه النص، وهذا الأمر« دفع بعض النقاد في محاولة تطبيق هذه المناهج الغربية إلى سلوك أحد سبيلين: فإما أن يحافظ على المنهج كما هو في أصله الغربي، وتبني مضامينه الفكرية والثقافية، بالتالي يؤدي هذا إلى غموض التطبيق واضطرابه، وطمس معالم النص وإساءة فهم مادته. وإما أن يجرد المنهج الغربي من مضامينه الفكرية بإحداث تغييرات، لكن هذا لا يعدو أن يكون وهما سرعان ما تظهر عيوبه أثناء التحليل/ التطبيق »[25].

والمتتبع للحركة النقدية في مجال الممارسات التطبيقية المعاصرة للنصوص العربية يدرك مدى التعثر الذي « يعانيه النقد العربي المعاصر، في سعيه إلى محاولة تطبيق المناهج النقدية الغربية، مما جعله غالبا ما يبقى في إطار التنظير ولا يقترب من النص إلا في نطاق محدود، وإذا فعل فهو يزيد في إبراز مدى التنافر الذي يحاول دون توظيف المنهج »[26].

إن المناهج النقدية الغربية نتجت على وقع تغييرات طرأت على المجتمع الغربي، ولهذا فإن « تطورها يحدث بصورة طبيعية، ولما عمد النقد العربي إلى نقل هذه الاتجاهات دون تأمين وتعبيد الطريق وتوفير وسط مناسب لها بل دون مراعاة طبيعة لغتنا العربية وتراثنا وحتى عقائدنا، اصطدم النقاد بنفور القارئ العربي (...)، من هذه المناهج والتيارات لأنها لا تناسب لغته ولا فكره ولا خلفياته التاريخية والدينية والعقائدية، فاعتمدت الدراسات في هذا المجال على التنظير لهذه المناهج وتقعيدها وعمدنا إلى إقحامها في نصوصنا وتحليلاتنا لتراثنا فأضرت

أكثر مما نفعت، ويظهر ذلك في اضطراب وتردد النقاد العرب على ضبط مصطلحات هذه المناهج وكثرة الخلاف حول استعمال هذه المصطلحات، مما يشتت ذهن الباحث العربي »[27].

وتتحدد إشكالية تطبيق المناهج النقدية على الظاهرة الأدبية في طريقة تداول الأدوات الإجرائية المتبعة، واختلاف طريقة استخدام كل محلل للمنهج النقدي المتبع، إضافة إلى ذلك اختلاف « المستوى الثقافي والتجارب النقدية لدى كل واحد تزيد من المشكلة لتبقى مشكلة التطبيق قائمة خاصة في النقد العربي وهذا يعود في عمومه إلى التنظير المتعدد، وكذا تعدد المفاهيم المترجمة للمصطلحات الغربية وتعريبها مباشرة دون إخضاعها للمقاييس النقدية، وقابلية النص الأدبي العربي لها، أو لا مما يزيد في غموض المصطلحات النظرية التي تبقى عصية مبهمة على الناقد، والمتلقي معا إضافة إلى ذلك الفهم الصحيح المؤسس للكيفية السليمة لتطبيق تلك المصطلحات على النصوص دون تمييز إذن فكيف لهم بتطبيقها على نصوص عربية تعكس رؤى فكرية معينة، وفلسفات معرفية ما »[28] ، هذا ما يطرح مشكلة نقدية في تطبيق المناهج النقدية الغربية التي تعد غريبة عن بيئتنا العربية، وعن ثقافتنا وإبداعنا الأدبي بصفة خاصة.

والإشكالية لا تكمن فقط في البحث عن الخلفيات الفلسفية للمناهج النقدية، حيث يتمركز الإشكال في كيفية تقديم هذه المناهج للمتلقي، وكيفية تطبيقها على النصوص الأدبية، وتعد هذه الإشكالية من « القضايا الشائكة التي كانت، وما تزال، تحظى باهتمام الكثير من أهل الدراية في مجال البحث، وهو اهتمام يعبر عن مدى القيمة الحقيقية المتزايدة التي أصبحت تعنى بها هذه القضيّة في مجال البحث العلمي بمختلف جوانبه ومستوياته، ولعل هذا ما يفسّر- بلا شك - العدد الهائل من الدراسات والأطروحات التي أعدّت في سبيل الوقوف عند جوهر القضية، بيد أنّ المتمعّن في هذا الكمّ الهائل من الدراسات، لا يجد ما يثلج الصدر ويشفي الغليل، إذ غاب عن أصحابها الوعي المنهجي، فكانوا بعيدين عن عمق الإشكالية المطروحة في تشعباتها وأبعادها المختلفة »[29].

فقد امتدت إشكالية تطبيق المناهج الغربية على النصوص العربية إلى الدرس الجامعي، حيث نجد أن أغلب الدراسات « يعوزها التدقيق الصائب، ذلك أن إشكالية المنهج المستورد من الآخر، والتي كانت على مستوى النقاد قد تغلغلت إلى مستويات أخرى، فنجد الطالب مثلا يتبنى منهجا معينا ليس لأنه الأنسب للمقاربة أو لتمكنه من آلياته، بل لأن الموضة في المقاربة هي هذا المنهج، وهذا ما زاد في عمق الإشكالية حتى أضحت سببا في التيه الذي اتسم به النقد العربي المعاصر، ولأنهم لم يعطوا بديلا لمناهج تنتج من رحم حقل المعرفة العربي، والتي تكون مناهج بخصوصية التربة العربية الأصيلة »[30]، حيث تكمن إشكالية المناهج النقدية

الغربية أثناء التطبيق على النص العربي، ما يؤدي إلى تعثر الدارس إلى صعوبة الاختيار بين المناهج الغربية، هذا ما يشكل عدم التوافق بين المنهج الغربي والنص العربي، ما يجعل تحليل النص العربي في حدود ضيقة لا تحقق المطالب الرئيسة في استكناه معانيه العميقة.

وهذه الإشكالية المطروحة لا تقف عند رفض هذه المناهج أو تقبلها « فالرفض لا يستطيع إضعاف حضور المناهج الغربية في سياقات غير سياقاتها، ولا القبول في إمكانه إكساب تلك المناهج صفة الحياد، ونقلها بمحمولاتها الفكرية وتوظيفها في سياق ثقافي مغاير. ولعل الصيحات المتعالية من لدن الكثيرين كانت ترى الحل فيما يسمى الأصالة والمعاصرة، مع ما في هذه المقولة من مغالطة، وكأنها تركيبة سحرية، تقفز ببساطة فوق كل التعقيدات محققة تزاوجًا بين الثقافتين، وكأن الأمر لا يعدو مجرد الجمع بين متناقضين في تركيبة واحدة، متناسين الخصوصية الحضارية لكل ثقافة، وما قد يلحق النصوص الإبداعية من تشوه وهي تباشر بآليات نقدية متحيزة لسياقها الفكري الذي لفظها »[31]، هذه التناقضات وغيرها أدت إلى فتح المجال أمام النقد العرب للسعي نحو تأسيس منهج نقدي عربي لمقاربة النص الأدبي .

4- المناهج النقدية والجهود العربية:

تستمر محاولات النقاد العرب في التأسيس لمنهج نقدي عربي، وتصب هذه المحاولات في رؤيتين مختلفتين « الأولى تراثية ، تبحث عن تحقيق تطور نوعي في كل ما ورثته بما فيه الإنتاج النقدي وكيفية التعامل معه، والثانية حداثية؛ تبحث في كيفية تلقف الثقافة الغربية الحديثة الوافدة بما فيها الثقافة النقدية (...)، فالنظرة التراثية ترى أنه ينبغي على النقد العربي الحديث، أن يأخذ مسألة الخصوصية بعين الاعتبار، وأنه من غير الممكن استعارة مناهج معينة وتطبيقها تطبيقا لا يراعي خصوصية الأدب واختلاف الثقافات، وإن من الضروري إعادة صياغة المناهج نفسها، وممارسة نوع من الانتقائية في التطبيق النقدي».[32]

ولا يسع المشتغلين بالنقد العربي إلا أن « يسارعوا إلى اعتناق كل فكرة أو مقولة نقدية، واردة من صلب تلك المناهج النقدية المعاصرة، بل يجب دراسة السياقات التي نشأت فيها ».[33]

ومن هذا المنطلق أصبح للنظرية النقدية العربية « أوجه متعددة تجعلها تبحث عن التأسيس لها من خلال المحاولات الجادة عند نقادنا السيميائيين خاصة المغاربة منهم محمد مفتاح، وعبد الفتاح كليطو، وسعيد يقطين، وجميل حمداوي، والسعيد بنكراد، وغيرهم ممن مازالوا يحاولون التأصيل للنقد السيميائي العربي»[34].

ومحاولة الأخذ من الغرب في توجهاتهم النقدية المختلفة لابد منها في تحقيق التكامل المعرفي في مجال الدراسات النقدية، ولذلك فإنَّ « التفاعل الثقافي في مجال الفكر النقدي ضرورة لا مناص منها، مع ضرورة أن يحكم هذا التفاعل المعرفي وعيٌ بخصوصية النص العربي

وحواضنه الفكرية والفلسفية والعقدية والثقافية، وهو ما يؤسس لحوار نقدي مثمر بعيدا عن التهويل أو التهوين، وهذا ما يعوّل عليه في خلق ديناميكية تنهض بالنقد العربي، كونها تستفيد من حركية النقد الغربي المتجددة، في حين لا تغلق بابها في وجه الطروحات التراثية التي مازالت بحاجة إلى تثوير وأقلمة مع مستجدات العصر»[35] .

وعلى العموم لا يمكن رفض المناهج النقدية الغربية، ولكن يجب الوعي بأسسها الابستمولوجية، فإذا كان « ما يأتينا من الغرب ليس خيرًا كلّه، فهو أيضًا ليس شرًا كلّه ».[36]

ومن ثمة وجب على الناقد العربي تحري الوعي والاعتدال في اكتساب الثقافة الغربية، وليس من المجدي إتباع المناهج النقدية الغربية دون النظر في خلفياتها، ومصادرها الفكرية، حيث أن تطبيقها على النص العربي يجعله يتحمل آليات توصف بالغريبة.

وانطلاقا من هذا فإن فالاعتماد اللاواعي على المناهج النقدية الغربية التي « نبتت في تربة مختلفة عن تربتنا وثقافتنا والتي قامت على أساس من الجدل والشك الماديين (...)، كل ذلك لا يمكن أن يبعدنا عن أصولنا وتاريخنا وتقاليدنا الحضارية، وعليه فنحن مطالبون بدلا من الافتنان بما تشيعه من بريق كاذب للجدة والتطور، أن نغربل ما يصلنا منها، ونأخذ فقط ما يفيد ثقافتنا ويزيدها قوة وأصالة »[37].

وعليه يستلزم أن ينطلق النقد من « همومنا الحضارية المعاصرة التي تميز خطابنا الأدبي، ليخلص إلى تأسيس رؤية معبرة عن هذا الفهم الخاص للذات الحضارية ويغني طرفي المعادلة، وينتج قيما معرفية وإبداعية جديدة تحدد موقع إنجازنا مقارنة مع الآخر »[38].

و يمكن التعامل مع المناهج النقدية الغربية في حدود « ثقافة الاختلاف أي التعامل مع الآخر كمعرفة لها خصوصيتها الحضارية، التي تجعلها مختلفة عن حضارة الذات المنفتحة، لا كذات عارفة تشع على غيرها بالمعرفة، فالدعوة إلى اللاعشوائية والانفتاح المشروط على نتائج الآخر، وأخذ الحيطة من الارتماء في أحضانه، لا يعني مقاطعته، وغلق باب الاستفادة من النتائج التي تشترك مع المزاج الثقافي العربي »[39].

ولا يمكن تجاهل الجهود النقدية العربية التي « تقف اليوم على مساحة من الثراء المعرفي والتنوع الجمالي فيما قدمه الغرب من مناهج نقدية متنوعة واتجاهات خصبة، يمكن لنا الدخول معها بعلاقة جدلية تتمثل ما فيها من منطلقات جادة وهضم معطياتها ووعي أسبابها وإدراك سياقاتها الثقافية ومنطلقاتها المعرفية، مستندين في ذلك إلى عقل نقدي يستحضر مختلف معطيات الإنجاز الحضاري الإيجابية للأمة »[40].

هذا إلى جانب محاولة إيجاد حلول في مجال المناهج النقدية إذ « طوّروا خطابا نقديا عربيا حديث، يعتمد على التركيب المتجانس من التيارات المختلفة والنمذجة المؤلفة بين المناهج

المتعددة، والإنجاز المتميز في صلب الثقافة العربية »[41]، وهذا لا يعني سد باب التفتح على الآخر/ الغرب والأخذ من ثرواته الثقافية في جميع الميادين، ولكن على العكس من ذلك وفق شروط محددة « لأنه إذا كان الانفتاح ضروري لكل تقدم، فإنه سرعان ما يصبح انسلاخا وتبعية، إن هو لم يتقيد بشروط موضوعية تضبط حدوده وتوجهاته، وتحافظ للذات على خصوصياتها وتمايزها، التي بدونها لن تجد مكانا في الخريطة الحضارية الكونية، شريطة طبعا أن لا تبلغ هذه المحافظة، حد الانغلاق فتنقلب لتقوقع، بسد الأبواب ويكرس التخلف »[42]، فالإشكالية لا تتمركز في الأخذ من المناهج النقدية الغربية، ولكن يتمحور الإشكال في غياب الوعي في استهلاك هذه المناهج.

خاتمة:

على غرار ما سبق يتضح أن إشكالية تطبيق المناهج النقدية ترجع في أساسها إلى الثقافة الغربية البعيدة عن ثقافتنا العربية، ولذلك يجب الحفر في الخلفيات المعرفية لهذه المناهج قصد معرفة اللامرئي فيها، ونتجاوز فكرة مفهوم المنهج على أنه « المعرفة الوثوقية التي تغير نفسها دائما لإرضائنا وتوفير الإجابات إلى مفهوم المنهج على أنه أداة للأسئلة أو الأدلة ذات طابع إشكالي يبلور الأجوبة بدورها إلى أسئلة؟ أو بعبارة أخرى تعمل مقاربتها على استنطاق المعرفة الكامنة داخل النصوص لبلورتها ضمن أسئلة جديدة أم أنها لا تعيد إلا بعث المستهلك / الجاهز/ النمطي؟»[43].

وتطبيق المناهج النقدية الغربية على النصوص العربية فيه الكثير من المجازفة التي تحمل النص ما لا يطيق، وسبب ذلك يرجع في أساسه إلى المرجعية الفكرية للمناهج الغربية التي نشأت في ظل نظريات فلسفية تعود في معظمها إلى « أنسنة الدين التي تعني إعادة المرجعية الدينية إلى الإنسان، وإطلاق العنان لفكره الذاتي دون قيد خارجي »[44]، وعليه يمكن الاعتماد على التراث النقدي العربي والاستعانة من المناهج الغربية في حدود معينة، و بقدر ما يتوافق ويتناسب مع النص الأدبي العربي، وإعادة النظر في كيفية التعامل مع هذه المناهج بطريقة هادفة دون خلخلة النص العربي.

الهوامش

[1] سالم سعدون، قراءة النص بين الرؤية المنهجية والأدوات الإجرائية، مجلة المعارف، البويرة، الجزائر، العدد 1، 2006، ص 36،37

[2] محمد الديهاجي، المناهج النقدية وإشكالية التطبيق، www. Alquds.co.uk.

[3] أحمد مدني، المرجعية الفكرية للمناهج النقدية الغربية المعاصرة وتأثيرها على النقد العربي، مجلة دراسات لسانية، جامعة لونيسي علي، البليدة، الجزائر، العدد 10، 2018، ص 187.

[4] رضا عامر، المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها- المنهج السيميائي نموذجا-، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، غرداية، الجزائر، العدد 3، 2009 ، ص 330.

[5] محمد بلعيد، الجذور المعرفية والفلسفية النقدية المعاصرة: المنهج التفكيكي نموذجا، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل البحث العلمي، لبنان، العدد 53، 2019، ص 116.

[6] أحمد مدني، المرجع نفسه، ص 187.

[7] فركوس حنيفة، الأصول الغربية للسيمياء وإرهاصاتها العربية، مجلة الأثر، ورقلة، الجزائر، العدد 23، 2015، ص 73.

[8] ليلى شعبان شيخ محمد رضوان و سهام سلامة عباس، المنهج السيميائي في تحليل النص الأدبي، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، العدد 33، ص 895.

[9] أحمد مدني، المرجع نفسه، ص 188.

[10] عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر- مقاربة حوارية في الأصول المعرفية-، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 2005، ص 135، 136.

[11] رضا عامر، المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها (السيميائية/ الأسلوبية/ التداولية)، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، سكيكدة، الجزائر، العدد 14، 2017، ص 130.

[12] فاطمة سعدون، إشكالية التطبيق والوعي بالأصول، مجلة جسور المعرفة،، الشلف، الجزائر، العدد السابع، 2016، ص 70.

[13] عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه- دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة،، الكويت، 2003، ص 11.

[14] محمد بلعيد، المرجع نفسه، ص 133.

[15] عبد الغني بارة، المرجع نفسه ، ص 135.

[16] فاطمة سعدون، المرجع نفسه، ص 7 .

[17] عبد العالي بوطيب، المرجع نفسه، ص 456.

[18] بلمحجوب محجوب، النص والمنهج في الدراسات الأدبية (النظرية والتطبيق)، مجلة المعارف، البويرة، الجزائر، العدد 401، 2014، ص 50.

[19]رضا عامر، المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها- المنهج السيميائي نموذجا-، ص 327

[20] المرجع نفسه.

[21] فاطمة سعدون، المرجع نفسه، ص 72.

[22] حفيظة بن قاتة، الخطاب النقدي الجزائري المعاصر ومدارس النقد الغربية، أطروحة دكتوراه، إشراف يوسف بلطرش، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف، الجزائر، 2016، ص 264.

[23] عبد الغني بارة، المرجع نفسه، ص 134.

[24] إبراهيم صدقة، إشكالية التفاعل بين الأداة والموضوع، مجلة المعارف، البويرة، الجزائر، العدد 1301، 2006، ص 169.

[25] ينظر: عبد الغني بارة، المرجع نفسه، ص 136.

[26] . عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، الكويت، العدد 1و2، 1994، ص 8

[27] لخضر سنوسي، المناهج النقدية الغربية وآفاق تطبيقها على النصوص الأدبية العربية، مجلة تاريخ العلوم، المدية، الجزائر، العدد الرابع، ص 67.

[28] رضا عامر، المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها- المنهج السيميائي نموذجا- ، ص 336

[29] عبد الغني بارة، المرجع نفسه، ص 133.

[30] فاطمة سعدون، المرجع نفسه، ص 126.

[31] عبد الغني بارة، المرجع نفسه، ص 138.

[32] سالم سعدون، قراءة النص بين الرؤية المنهجية والأدوات الإجرائية، ص 32، 33.

[33] أحمد مدني، المرجع نفسه، 187.

[34] رضا عامر، المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها- المنهج السيميائي نموذجا-، ص 336.

[35] حمزة بسو، الموقف النقدي العربي من إفرازات الحداثة الغربية (المناهج النقدية)، مجلة آفاق العلوم، الجلفة، الجزائر، العدد 9، 2017، ص 229.

[36] عبد العزيز حمودة، المرجع نفسه ، ص8.

[37] بلمحجوب محجوب، المرجع نفسه، ص 50.

[38] صالح هويدي، النقد الأدبي الحديث (قضاياه ومناهجه)، ص41 ، www.kotobarabia.com.

[39] عبد الغني بارة، المرجع نفسه ، ص 139.

[40] صالح هويدي، المرجع نفسه، ص 40، 41.

[41] صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2002،1، ص 153.

[42] عبد العالي بوطيب، المرجع نفسه، ص 465.

[43] خير الدين دعيش، المناهج النقدية ونظرية المعرفة(نحو تأسيس لوعي منهجي)، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر، العدد السابع، ص 259.

[44] أحمد مدني، المرجع نفسه، ص 182.